لعل الليـــالى ...!

[رسالة مهداة إلى الروح الذي
أهدى إليه « وحى الرسالة »]

للدكتور زكى مبارك

ما هفا القلب لخطرة من خطرات الحب والمجد إلا ترنمت بقول البحترى :

لعلّ الليالى يكتسين بشاشةً فيرجعن من عهد الهوى المتقادم

ولعهد الهوى فى قلبي وعقلى ألوف من الألوان والظلال . فهو تارة صورة وجدانية ، وتارة صورة وطنية ، وحيناً نزعة إسلامية ، وأحياناً نزعة عربية . وقد يحلّق الفكر فيرتفع إلى الأجواء الإنسانية فى كثير من الأحايين

ولا أعرف بالضبط متى تثور فى صدرى هذه المعانى : فقد تثور للشعور بالتقصير حين أتذكر تخلفى عن أداء بعض الواجبات كالذى وقع يوم أهملت التنويه بكتاب «الأدب المصرى الإسلامى» للأستاذ محمد كامل حسين ، مع أن هذا الكتاب قدّم إلى عقلى فنوناً من الأريحية حين حبستُ نفسى على قراءته خمس ليال متواليات ، وكالذى وقع حين قصّرت بكتاب الدكتور طه بك حسين عن أبي العلاء فى سجنه ، مع أنى قرأته فى سهرة واحدة وقيدت بهوامشه ملاحظات كانت خليقة بأن تفتح للقراء باباً من الدرس والتحقيق

وهل أنسى أنى فرطت فى التنويه بكتاب الأستاذ سعيد العريان عن حياة الرافعى ، وهو كتاب شُغِلتُ فيه بغير حق لأنى كنت قلت إن العريان لا يدرك أسرار الحب ولا يفهم أين يقع قلبٌ مثل قلب الرافعى حين ينحدر فى هواه ؟ وكيف يدرك العريان هذه الدقائق وهو لا يصل إلى (شبرا) إلا بدليل مع أن عمله هناك ؟ !

وكيف أغفر لنفسى السكوت عن الأستاذ عبد المتعال الصعيدى وقد اجترأ على الدخول بينى وبين الأستاذ أحمد أمين والدكتور طه حسين ؟ كان هذا الأستاذ جديراً بالالتفات إليه حين أنكر علىّ أن أقول : « إن أبا نواس فى فجوره أشعر من أبى العتاهية فى تقواه » ؟ ولو أنى التفت إليه لخلقت فرصة لتحديد الصلات بين الأدب والدين

وفاتنى ، مع الأسف ، أن أتحدث عن كلمة قالها رفعة رئيس الوزراء يوم جمع مديرى الأقاليم بمكتبه فى وزارة الداخلية : فقد نبههم إلى مراعاة الكفاية قبل مراعاة الأقدمية فى ترقية الموظفين ، وأعلن بصراحة أن التقيد بالأقدمية يعطل مواهب الأكفاء ، ويروض الكسالى على الاطمئنان إلى أن الزمن يصنع فى الترقية ما لا يصنع الجهاد فى أداء الواجب بأمانة وإخلاص

ولقد كانت هذه النظرة الحصيفة خليقة بأن تُقدَّم إلى القراء فى مقال أو مقالين عساها تصبح من التقاليد الأساسية فى الحكومة المصرية

وهل ضاعت المواهب فى بلادنا إلا بسبب التقيد بالأقدمية ؟

إن رفعة رئيس الوزراء فتح مجال النضال لتحطيم هذه الصخرة التى طال عهدها بتعويق خطوات المجاهدين فى سبيل الواجب ، فكيف نسكت وقد رأينا الكسالى الخاملين يعتمدون على الزمن فى تقدير الأنصبة والحظوظ والحقوق ؟

ومن الذى يشرح هذه المعانى ويصيّر الاعتماد على الكفاية عقيدة وطنية إذا سكت عنها الأدباء واكتفوا من الأدب بوصف القمر والشمس والنجوم والأزهار والرياحين ؟

وكيف يُحجب الأدباء عن درس الشؤون الأساسية فى سياسة المجتمع وقد صار الأدب فى بلادنا من المؤهلات الملحوظة فى اختيار الوزراء ؟

وهل يظن عاقل أن وزراءنا يرضون لأنفسهم ومواهبهم بالتخلف عن مسايرة الحياة الأدبية ؟

الأديب المصرى هو المسئول عن العزلة التى يعانيها بالبعد عن محيط الحياة الرسمية ، فلو أنه كان اهتم بمتابعة ما يجدّ من الشؤون التى تعالجها الدولة بالطب لأمراض المجتمع لنُصبتْ لأدبه الموازين ، وصار له فى كل مقام مقال ؛ ولكن الأديب المصرى يتوهم فى أغلب الأحيان أن الأدب له مجال غير النظر فيما يهتم به وزراء الدولة من خطير الشؤون

إن الزمن يُسرع ، ثم يُسرع ، ثم يسرع ، وأخشى أن تنقضى حياتنا قبل أن نرى للقلم دولة فى هذه البلاد

فمتى يعرف الأديب أن من واجبه أن يُقنع الدولة بأنه خُلق لوصف المجتمع باللغة العربية : وهى اليوم لغة مصر ، وعن مصر يأخذ الحجاز نفسه علوم اللغة العربية ؟

ومتى يستطيع الأديب بحسن الترفق والتلطف أن يكون له فى كل معضلة قول ، وفى كل مشكلة رأى ؟ متى يغيّر الأديب ما بنفسه فيدرك أن الدولة تنفق فى كل سنة نحو نصف مليون من الدنانير لتخلق الأديب الذى يستطيع أن يشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم ومبادئهم . والذى يستطيع بسحر البيان أن يروض الجماهير على تذوق معنى الحياة ومعنى العدل ؟

الأديب فى بلادنا كثير التوجع والتفجع ، ولكنه لم يخط خطوة جدية فى تجميل الوجود ، وهل فى الوجود جمال وقبح ؟ الوجود هو هو لسائر الناس ، ولكنه كالماء يتلوّن بلون الإناء . والأديب الحق هو الذى يستطيع تحويل الوجود من لون إلى لون ، فيُضحك قراءه حين يريد ، ويبكيهم حين يشاء ، وَفقاً لخطة مرسومة يفرضها الشعور بألوان ذلك الوجود

وأين الأديب الذى سحره جمال الريف المصرى وهو يتنقّل بالسيارة أو القطار من إقليم إلى إقليم فوصف أرض مصر وسماءها وصفاً يخلق الحرص الصادق على الاعتزاز بالملكية فى أرجاء هذا الوطن الجميل ؟

أين الأديب الذى يفكر فى بناء دار بالريف يسكن إليها من وقت إلى وقت ، كما يصنع أدباء الفرنسيس والإنجليز ، وكما كان يصنع أدباؤنا الأقدمون ؟

إن الأديب يشكو من تجاهل الدولة لحقه فى الحياة ؛ فهل حفظ هو حقه فى الحياة ؟

أليس من العجب الماجب أن يكون الفلاح أعرف بحقه من الأديب ؟

الفلاح المصرى هو المثل الأعلى فى الوطنية ، لأنه لا يبيع شبراً من أرضه إلا بعد أن يبلله بالدمع ، وهو يشعر بالخزى أمام نفسه وأمام زوجته وأطفاله حين يبيع فداناً ورثه عن أمه أو أبيه ، فأين الأديب الذى يحس هذه المعانى ؟ أين وميادين الأدب تُنتقَص فى كل يوم ولا تثور زفرة من شاعر أو كاتب أو خطيب ؟ وللأدباء أملاك صحيحة ورثوها بألسنة الأقلام ، كما ترث الدول أملاكها بالمدافع والسيوف ، فأين من يعرف تلك الأملاك ؟

أملاكنا هى الميادين الذوقية والأخلاقية والاجتماعية ، ومن العار أن يسبقنا غيرنا إلى العناية بشؤون المجتمع ونحن نملك من قوة الإفصاح عن أسرار المجتمع أضعاف ما يملكون ، ونستطيع نقل المجتمع من حال إلى أحوال إذا صرنا من أصحاب المبادئ والعقائد ، وفرضنا على أقلامنا الجهاد الموصول فى تثقيف المشاعر والعواطف والأذواق

وإلى من تلجأ الأمة فى تهذيب مشاعرها وعواطفها وأذواقها إذا جفّ قلم الأديب ؟

وما قيمة الأديب إن لم يكن لصرير قلمه صوت مسموع فى الأكواخ والقصور والمعاهد والمعابد ؟

وهل سيطرت عقيدة دينية ، أو نظرية أخلاقية ، أو شريعة ذوقية ، بغير سناد من ألسنة الأقلام ؟

أخشى أن يكون الأدباء فى مصر هم «الأفندية» فى فلسطين؛ فالأفندية هناك هم الذين باعوا أملاكهم ، أما الفلاحون فى فلسطين فهم الذين عرفوا قيمة الوطن فلم يبيعوا ما ورثوه عن الآباء والأجداد

أين فى أدباء اليوم بمصر من يذكّر بالشيخ محمد عبده ، الرجل الفلاح الذى فرض على الدولة أن تحسب لقلمه ألف حساب ؟ وهل فينا شبيه للأزهرى الفلاح سعد زغلول الذى رجّ مصر والشرق بدعوته الكريمة إلى إعزاز الشخصية القومية ؟

إن الأنبياء ـ وهم مؤيّدون بروح الله ـ لم يصلوا إلى القلوب بغير البيان !

فمتى يصير إعزاز البيان فى بلادنا شريعة من الشرائع ؟

وهل نصل إلى ذلك إلا يوم يعرف أرباب الأقلام أنهم رسل هداية ، وأن سواد الحبر فى أقلامهم أنفع لوطنهم من بياض الصباح ؟

حدثنا الأستاذ مصطفى عبد الرازق بك فى مقال نشره بجريدة السفور منذ أكثر من عشرين سنة، أنه رأى زهرة جميلة فى أحد أسفاره، وأنه لم يجد من يعرف اسم تلك الزهرة . فقال : عزاء ، عزاء، أيتها الزهرة، فليس اسمك أول اسم يضيع فى هذه البلاد !

وهل صنع الأستاذ مصطفى عبد الرازق أكثر مما يصنع من يتوجعون للحق الضائع فى صمت ؟

هل نزل من القطار فنقل الزهرة إلى قصره وخلع عليها اسماً من طرائف الأسماء ؟

وهل يذكر الآن مصير تلك الزهرة ، وقد توسلتْ إليه أن يرعى وداد لحظة ؟

ولتلك الزهرة شبيه من الجواهر المجهولة فى هذه البلاد !

عندكم الأديب ، وهو أنفع لكم من معدن « الولفرام » ، الذى استكشف بنتة فى الصحراء الشرقية ، وهو معدن نفيس ينتبكم عن أخيه الذى يصدر عن بلاد الصين ، وقد استكشفه رجل أجنبي فى السنة الماضية . فأين الأجنبيُّ اللمهم الذى توفقه المقادير إلى استكشاف العبقرية الأدبية فى وطن « حابى » والحابى هو الوهاب ، وهو اسم النيل قبل أن يعرفه اليونان ؟

تحرَّك ، أيها الأديب ، ودُلّ على نفسك كما دلّ على نفسه معدن الولفرام !

إن ذلك المعدن هو أصلح المعادن لصياغة الأسلاك الكهربائية ، ونفسك هى الكهرباء أيها الأديب ، فاصعقْ من يجادلونك فى عبقريتك ، وسيطر بقلمك على الوجود .

٦ زرت عين حلوان ، فسمعتها تقول : منذ ألوف أو ملايين من السنين وأنا محبوسة فى الصحراء ، لا يحس وجودى فرعون ولا خليفة ولا سلطان ولا مَلك !

فافتديت بالحكيم مصطفى عبد الرازق وقلت : معذرة ، يا عين حلوان ، فما كنت أول جوهر ينساه أهل هذه البلاد ! !

وما عين حلوان ؟

هى عين يشفى ماؤها من أمراض الكبد

ولى كبدٌ مقروحة من يبيعنى بها كبداً ليست بذات قروحِ
أباها علىَّ الناسُ لا يَشترُونها ومن يشترى ذا علة بصحيح

فأين كانت هذه العين وقد مات ألوف وملايين من أجدادنا الأكرمين بأكباد قرّحتها مآسى الحب ؟

وهذه العين أراد طمسها بعض أعداء مصر بالأسمنت فى غفوة الليل ولم يفلحوا

فمتى ينتصر الأدب على خصومه الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم !

لن يكون لمصر عَلَم مرفوع إلا يوم تعرف أن الله أعزّها بالقلم ، وأنه عزّ شأنه جعل فى واديها شعلة الحركة الفكرية فى القديم والحديث . ومن الذى يتصور للدنيا حياة بدون مصر وهى صلة الوصل بين الشرق والغرب ؟ وهل كان لأنبياء الشرق سناد غير مصر وفيها عاش أعظم الحكماء والرهبان والصوفية ؟ وهل اتفق لمدينة فى الدنيا ما اتفق للقاهرة من رعاية الصوامع والكنائس والمساجد ؟

إن وادينا هو الوادى الأخضر بين وديان العالم ، ولن نزكى عن نعمة الله علينا إلا بالتغنى بهذا الوادى الجميل ؛ ولكن من يسمح لنا بالغناء ؟

هل رأيتم جو مصر فى يوم ٦ و ١١ يناير ؟

هل رأيتم ؟ هل رأيتم ؟

حدثونى فى أى بلد يرى الناس مثل هذين اليومين فى فصل الشتاء ؟

إن يوماً واحداً من أيام الصحو فى مصر لأفضل من جميع الأيام فى سائر البلاد . وبفضل أيام الصحو فى مصر صح لأحد ملوكنا القدماء أن يرى نفسه إلهَ الأرض والسموات

ومع ذلك جاز لبعض خلق الله أن ينكر على شعراء مصر نعمة الفتون والجنون

ومتى يُفتَن المرء أو يجنُّ وهو لم ير ضحوة الربيع فى ظُلمة الشتاء ؟

أيامنا كلها ربيع ولكن أين من يعرف ؟

ذلك يوم ٦ يناير ، وهذا يوم ١١ يناير ، فاسألوا فى أى أرض عرف الناس مثل هذين اليومين ؟

لعل الليالى ...!

لعل الليالى يكتسين بشاشةً فيرجعن من عهد الهوى المتقادمِ

لعل الليالى ...!

لعل الليالى تُحسن مرة واحدة فتلفت بعض الناس إلى الكأس الذى صدعوه بعد أن شربوا ما كان يحوى من رحيق !

لعل الليالى تذكّر بعض الناسين بالوَتر الذى قطعوه بعد أن ثملت آذانهم بما كان يملك من رنين !

لعل الليالى ترجع أحبابنا الشاردين إلى عهدهم القديم حين كانوا يحسّون ظمأ الأرواح والقلوب !

إن عشتُ ـ وعُمر الصادقين فى مصر أقصر من عمر الورد ـ فسأنتقم من زمانى

وهل أموت قبل أن أساعد على تأسيس دولة للقلم فى هذه البلاد؟

وكيف يموت من ينقل الناس بقلمه من ضلال إلى هدى ، أو من هدى إلى ضلال ؟

يستطيع قومٌ أن يتناسوا فضل القلم فى خلق المودّات الصحيحة لمصر فى أقطار الشرق ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يصدّونا عن الجهاد فى الطب لأمراض المجتمع المصرى والشرقى . ولن يُفلح من يتوهمون القدرة على تزهيدنا فى تذوق معانى الحب والمجد

نحن من صُنع الله ، وبيد الله لا تمسُّ شيئاً أو شخصاً إلا لتهبه الخلود

لعل الليالى ...!

لعل الليالى تُلهم شعراء مصر فكرة « نشيد العدل » كما ألهمتهم فكرة « النشيد القومى » و« الأناشيد العسكرية ». ولعل الليالى تذكّر من يسمُرون على شواطىء بَرَدى والعاصى ودجلة والفرات وسائر الأنهار العربية والإسلامية أن لهم فى مصر إخواناً يُفذون أبصارهم تحت أضواء المصابيح ليقيموا دولة للقلم العربى ، القلم الذى عجزت عن قصفه مكايد الصروف وعثرات الجدود

لعلّ وليت ! ! وهل تغنى لعلّ أو تنفع ليت ؟ ؟

« ن ، والقلم وما يسطُرون »

فإلى الله الذى أقسم بالقلم أرفع نجواى وشكواى ، وهو حسبى ونعم الوكيل

فيا فاطر الأرض والسموات ، ويا باعث النور فى ظلمات الحبر الأسود ، ويا راحم من دمائس الكائدين والخاتلين ، ويا مُلهمى وساوس الشك وحقائق اليقين ، عليك توكلتُ وإليك أُنيب .

زكى مبارك

الرســـالة فى سنتهـــا الثـــامنة

دخلت الرسالة عامها الثامن وهى أقوى ما تكون اعتماداً على فضل الله وعطف أنصارها فى تذليل كل عقبة

وعلى الرغم من استحكام أزمة الورق وغلائه الفاحش فى العالم كله ستستمر الرسالة على تخفيض اشتراكها ومنح هداياها وإصدار عددها الممتاز — فى مدة هذا الشهر سيكون الاشتراك فى الرسالة مميزاً بما يأتى :

ص

٦٠ ستون قرشاً عن سنة كاملة فى مصر والسودان تدفع من الآن إلى آخر يناير ويكون للمشترك الحق فيما يساوى خمسة عشر قرشاً من الكتب القيمة

٥٠ خمسون قرشاً عن سنة كاملة فى مصر والسودان للمعلمين الالزاميين وطلاب المعاهد والمدارس تدفع فى أثناء المدة المذكورة ويكون للمشترك الحق كذلك فيما يساوى خمسة عشر قرشاً من كتب الهدايا. ويجوز لهم دفع الاشتراك خمسة أقساط متتابعة.

والاشتراك فى البلاد العربية كالاشتراك فى مصر من حيث القيمة والمدة والهدايا ، وإنما يدفع المشترك فيها فرق البريد وهو أربعون قرشاً فى العراق ، وعشرون قرشاً فى سائر البلاد العربية

الـــرواية

أما الرواية فقد أدغمناها مؤقتاً فى الرسالة حتى يسهل ورود الورق فتصدر منفردة بشكل أفخم ونظام أجمل . وستعنى الرسالة فيما تُعنى به من الأمور الجديدة بالأقصوصة فيكون فى كل عدد منها أقصوصة أو أقصوصتان من أروع ما يوضع أو ينقل .

الاشتراك فى الرسالة الآن يضمن لك وارث معارف ومكتبة